العلم بالعلم (3)

عندما أعود لمرحلة سابقة ، وأستعرض ما كانت تحمله دراما تصوراتي عن العلم أدرك مدى سطحيتها وسذاجتها . كان العلم يتمظهر في وعيي على أنه كيان شامخ ، ومسلك ناجز ، لا علاقة له بمجتمع أو بتاريخ أو بإيديولوجيا ، وما علينا كطلبة معرفة إلا تقفي خطى السابقين ممن ساروا في أثره كأحد معطيات الوجود.

لكن من مِنن ا تعرفي بأن العلم في واقع الأمر ليس من هذا القبيل ، وما هو إلا بناء إنساني من ألفه إلى يائه ، وهُوية هذا البناء إن جاز التعبير ماهي إلا تصورات الإنسان التي أسهم المجتمع وأفق اللحظة التاريخية في سبكها .

وباقتضاب شديد ، فإن العلم بناء بمعنى أنه كما المنزل بناء لا يتم إلا بوجود بقعة محددة يتم تشييده عليها ، وبمنهجية تقنية تتم على تلك البقعة ، وبمخرجات مقننة من غرف ومجالس ودورات مياه يتغياها البناء في ترابطها الوظيفي وفي تحقيق هدفه العام .

فكذلك العلم بناء ، لا يتشيد ولا يستحكم إلا بعد أن يحدد موضوعاً يشتغل فيه ويستقل به عن غيره ، ومنهجاً موائماً للموضوع لكي يقاربه به ، وقوانيناً يستهدفها من جراء تطبيق منهجه على موضوعه لكي تنتظم في نموذج نظري متماسك يبرر به هذا العلم وجوده ويُمنح به شهادة ميلاده ، والأهم وقبلاً من ذلك كله توافره على مفاهيم مُحررة تحريراً دقيقاً لكي يضبط بها كلاً من الموضوع والمنهج والقانون والنظرية .

هل تبيَن معنا الآن كيف أن العلم بناء تحكم فيه التصورات الإنسانية المشهد برمته ، في كل تفاصيله ، بدءاً من صياغة المفاهيم إلى تحرير الموضوع إلى اختيار المنهج إلى استنتاج النظرية ؟؟

عندما نلفت إلى التصورات الإنسانية ودورها في كل مرحلة من المراحل السابقة فذلك ليس ادعاء بقدر ما أنه يصعب الادعاء بوجود مجتمع معرفي عارٍ من أي خلفيات فلسفية توجهه ؛ من هنا يتبين ببداهة أن البراءة الإيديولوجية في الدراسات العلمية عسيرة .

وفي ضوء ذلك نتفهم ماخلُصت إليه بعض مجتمعات المعرفة المتقدمة من ضرورة أن ينشط حقلان موازيان من الدراسات في كل مجتمع لمزاولة العمل العلمي ، وهما فلسفة العلم ، وسوسيولوجيا العلم ، ففيما يضطلع الأول بتفحص بناء أي علم من حيث تاريخه ، يتفرغ الثاني لدراسة العلاقة بين المعرفة والإطار الاجتماعي كمصدر لجميع المقولات المنطقية والمبادئ العقلية .

نعم هي مناشط معرفية بالتأكيد ليست يسيرة ، لكنها في غاية الأهمية ، آمل أن نوفق في الإضاءة على عمق بعض جوانبها .